السنة 1ماستر عقيدة. مقياس الرؤية الكونية. محاضرة عناصر الرؤية الكونية. د/دبيحي

تمهيد: إنّ بيان عناصر الرؤية الكونية يقتضي منا عقد مقارنة بين نوعين من أنواع الرؤية الكونية حتى يتجلى دور كل عنصر في الرؤية الكونية المعنية، وهنا ستكون الرؤية الكونية المحورية هي الرؤية الكونية التوحيدية المستمدة من الإسلام كدين، والتوحيد كعقيدة، وسنجعل المقابل لها الرؤية الكونية الغربية، لذا سنبحث عن موقع كل عنصر من عناصر الكونية التوحيدية (والممثلة في: الله، الإنسان والحياة) في الرؤية الكونية الغربية لبيان التمايز بينهما كنماذج تطبيقية للمحاضرة السابقة (خصائص الرؤيتين الكونيتين التوحيدية والوضعية):

المحور الأول: الله:

تمهيد: إذا كان الله تعالى هو المبدأ والمنتهى في العقيدة الإسلامية، فما موقعه في الرؤية الكونية الغربية؟ وكيف برهنت الرؤية الكونية التوحيدية على وجوده وصفاته وأفعاله؟

أولا: الله في الرؤية الكونية الغربية: التطرق إلى مسألة الألوهية في الفكر الغربي شاسع ومتنوع ولا يمكن الإلمام به في محاضرة واحدة، لذا ستتناول هذه المحاضرة أهم معالم الألوهية في الفكر الغربي من خلال نموذجين سادا في عصر ما بعد الحداثة، هما:

1–المفاهيم التبسيطية للإله (minimalist conceptions of God)[1]: ويمثل هذا الاتجاه كل من جوردون كوفمان وسالي ماكفاغ:

أ–جوردن كوفمان (Gordon Kaufman)[2]: نظرا لحذر ادعاءات ما بعد الحداثة الكبرى للمعرفة، فليس من المستغرب أن بعض فلاسفة الدين واللاهوتيين يقدمون مفاهيم تبسيطية عن "الله". ومن بين هؤلاء المفكرين، نجد أحد علماء اللاهوت البارزين المعاصرين، جوردون كوفمان، الذي تجاوز الفهم التقليدي للإله خصوصا في أعماله الأخيرة، ففي مؤلفه

---

[1] –المفاهيم التبسيطية أو كما تسمى في لغته الأصلية (minimalist conceptions of God)، والحقيقة أنني لم أجد لها مقابلا في اللغة العربية اصطلاحا في مجال الديانات –على حد اطلاعي–، ومن ثمة فالترجمة الاصطلاحية التقريبية اضطررت لوضعها بنفسي استئناسا باتجاه التبسيطيين في مجال الفن والأدب.

[2] – جوردون ديستر كوفمان (22 June 1925 – 22 July 2011): كان لاهوتيًا أمريكيًا وأستاذ مالينكرودت للألوهية في مدرسة هارفارد ديفينيتي ، حيث كان يدرس لأكثر من ثلاثة عقود بدءًا من عام 1963. [1] كما قام بالتدريس في كلية بومونا وجامعة فاندربيلت ، وألقى محاضرات في الهند واليابان وجنوب إفريقيا وإنجلترا وهونج كونج. كان كوفمان خادمًا رسامًا في الكنيسة المينونية لمدة 50 عامًا. من أعماله: *God, Mystery, Diversity: Christian Theology In A Pluralistic World*، *In Face of Mystery: A Constructive Theology*، *God the Problem*؛ https://en.wikipedia.org/wiki/Gordon_D._Kaufman، 2020/4/6، 13سا20د.

المسمى "في مواجهة الغموض"، يعرّف كوفمان الإله بأنه "إبداع الصدفة". كما يختار عدم نسب شخصية الإله أو وعيه بأي معنى أو قصد أو وكالة. وهذا على النقيض من أعماله السابقة التي كان فيها يميز الإبداع الإلهي من حيث "الفعل" الشامل، بل ويعبر كوفمان أحيانا عن عدم رغبته في تعيين أي تعالي حقيقي للإله، معتبرا أن وصفه بالإله، أو ضمني الكمال (**wholly within**)،أو محرك الكون (**the cosmic process**). ولكن يبدو مع هذا أنه توجد بعض الميولات المضادة حيث تبرز سمات التعالي من وراء الحجاب، كحديثه عن الإله ك"أساس" (**grounding**)، و"المستتر" (**underlying**)، "السند" أو "المستتر" (**behind**)، أو "موحد" (**unifying**)، أو "الدال على ذاته" (**expressing itself**)، أو "العامل" أو "الفاعل" (**working**) في وعبر جميع المحركات وكل الواقع.

في هذا المشروع البسيط ، يأمل كوفمان في إعادة بناء مفهوم الله حتى يتمكن كل من المؤمنين وغير المؤمنين الذين يجدون الكون موصل للحياة ومنجزاتها من إيجاد أرضية مشتركة للمفهوم النهائي.

ب–سالي ماكفاغ (**Sallie McFague**)[1]: تعد سالي ماكفاغ من رواد اللاهوت النسوي والبيئي المعاصر، هذا المجال الأخير (اللاهوت البيئي) يتجلى فيه موقفها التبسيطي لمسألة الإله، في كتابها "**Models of God: Theology for an Ecological, Nuclear Age**" الذي يقول جوردن كوفمان عنه في قراءة له أنّ سالي ماكفاغ توجه أنظارنا فيه إلى الجهة التي يجب أن تتحرك نحوها أعمال البناء اللاهوتي في العقود القادمة: نحو المزيد من الاهتمام البيئي الحساس والمركز، ونحو توظيف صور ونماذج جديدة في تفكيرنا حول الإله. فهمها للاهوت كله على أنه مجاز مكنها من تحرير نفسها (وتحريرنا) –حسب قوله– من رابطة العبودية للنماذج البطرياركية والملكية للماضي. هذا يضعها في موقع لتطوير استعارات أهملت أو رفضت من التيار الغالب للتقاليد الدينية الغربية بشكل منهجي –مفاهيم العالم كجسد الإله، وتصور الإله كأم، وحبيب–. نجحت عبر هذه الخطوات أن توفر نظرة لاهوتية بيئية جديدة ومحفزة كليا. على الرغم من أن ماكفاغ تنكر بتواضع أنها تقوم بلاهوت نظامي بأي معنى –يقول كوفمان– إلا أنها في الحقيقة أنشأت نظام لاهوتي جديد. وفي الواقع أنشأت طريقا جديدا للتفكير في اللاهوت النظامي (أسمته "اللاهوت المجازي") مع إعادة توجيه جذرية لمواضيع المسيحية الأساسية مرتكزة على تحليلها للنماذج اللاهوتية الجديدة التي اقترحتها. علاوة على ذلك، قامت بكل هذا بشكل مدمج واقتصادي. إنه كتاب مثير وتنوير –يقول كوفمان–.

[1]– كانت سالي ماكفاغ (**1933 – 15 نوفمبر 2019**): عالمة لاهوت مسيحية أمريكية، اشتهرت بتحليلها لكيفية استعارة المجاز في صميم كيف يمكننا التحدث عن الله. طبقت هذا النهج على وجه الخصوص على القضايا البيئية ، وكتبت بشكل مكثف حول العناية بالأرض كما لو كانت "جسد الله". كانت اللاهوتية المتميزة في الإقامة في مدرسة فانكوفر للاهوت ، كولومبيا البريطانية ، كندا. من أعمالها: *Models of God: Theology for an Ecological, Nuclear Age*، *The Body of God: An Ecological Theology*، *Metaphorical Theology: Models of God in Religious Language*. https://en.wikipedia.org/wiki/Sallie_McFague، 2020/4/6، 14سا10د.

السنة 1ماستر عقيدة. مقياس الرؤية الكونية. محاضرة عناصر الرؤية الكونية. د/دبيحي

أمّا عما احتواه هذا الكتاب ليحظى بكل هذا الاهتمام والمديح من قبل عالم لاهوت مسيحي ككوفمان، إنّ كتاب ماكفاغ هذا يتناول مصير الأرض الذي سيتدمر عن طريق التلوث و (أو) بمحرقة نووية. والسؤال الموجه هنا: ما هي الاستعارات عن علاقة الإله والعالم التي إن تحدثنا بها ستحفز على الأرجح البشرية لتأخذ مسؤوليتها حول مصير الأرض؟

إذن إنها رؤية كونية مسيحية أو لاهوت مسيحي جديد، هو اللاهوت البيئي الذي يسعى إلى إعادة توجيه الاعتقادات المسيحية، وإيجاد محفزات داخلها للمؤمنين ليتحركوا من أجل الحفاظ على البيئة بالتوقف عما يلوثها وتخليصها من التلوث الذي تعاني منه، وكذا الحفاظ عليها من محرقة نووية ممكن أن يتسبب فيها الإنسان للبيئة.

يقول بروس –أحد مراجعي كتاب ماكفاغ– في هذا الشأن بأنّه بالنسبة لها أنّ الصور التقليدية عن علاقة الإله بالعالم: الإله كملك، راعٍ أو سيد والعالم كمملكته أو ممتلكاته. مثل هذه الصور الانتصارية ليست غير مساعدة وحسب، بل هي في واقع مضرة لأنها تقود إما إلى السلوك التسلطي أو إلى الهروب. إنها تقود إلى الهيمنة والاستغلال إذا ما استعملها الواحد من حيث رأيته (ها) لعلاقته (ها) للعالم من ناحية ما كانعكاس أو مقاسمة في القوة الإلهية للهيمنة على الأرض. بدلا من ذلك، فهي تقود إلى السلبية والهروب إذا ما الفرد مال إلى الاعتقاد بأنّ الإله السيد هو وحده المسؤول على مستقبل العالم، في حين بإمكان البشرية القيام بالشيء القليل أو لا شيء للتأثير في النتيجة.

هذه الفهوم السلبية للإله ودوره في نظر ماكفاغ دفعتها لإيجاد تسميات وصورة أخرى أكثر فاعلية بحسب مراجعي كتابها، معتمدة في ذلك على المجاز كما سبقت الإشارة إليه، لتعطي بدائل للتسميات رأت أنها أكثر إفادة لبيان أو تصوير علاقة الإله بالعالم، هي (كما سبق بيانه) الأم، والصديق والمحب؛ هذه التسميات التي تشكك كوفمان للوهلة الأولى أنها قادرة على مساعدة المؤمنين المسيحيين على معالجة القضايا الصعبة حقا التي على اللاهوتيين اليوم الوصول إلى منتهاها. لكنه اكتشف –كما يقول– أنه كان مخطئا تماما في أحكامه هذه، ففحص ماكفاغ –بحسبه– لهذه النماذج كشفت على أنها قادرة على أن تحمل في داخلها إمكانية إعادة توجيه تقاليدنا اللاهوتية –يقول كوفمان– من تركيزها على الفردية التشخيصية – في مفاهيمها لكل من الإله والبشر– إلى فهم أكثر تأسيسا للوجود البشري وارتباطا مع النظم الفيزيائية والبيولوجية للطبيعة، وإلى مفهوم للإله على أنه منخرط كليا في كل العمليات الطبيعية.

إذن أكبر مشكلة واجهت وتواجه اللاهوت المسيحي بحسب كوفمان وماكفاغ هي التسميات وصور الإله في الفكر الديني المسيحي (الرؤية الكونية المسيحية) التي توجي للإنسان بإعفائه الكلي أو بهيمنته المطلقة التي تبيح له فعل كل شيء في العالم نظرا لأنّ الإله هو السيد المالك الذي عليه حماية هذا العالم، في حين أنّ الأمر ليس منوط بالإنسان وفي أحسن الأحوال لا يطلب منه فعل الكثير من أجل تحقيق هذه الحماية، وهو ما استوجب من اللاهوت المعاصر (ممثلا هنا في كوفمان وماكفاغ) السعي لإيجاد حلول لهذه المعضلة، فكان الحل بالنسبة لماكفاغ (وحسب قراءة كوفمان هو أيضا يوفقها الرأي) في اللجوء إلى المجاز لاستحداث تسميات للإله وتوحي بفعاليته هو والإنسان أكثر في حماية العالم –وخصوصا

الأرض–، ورغم هذا المجهود المبذول من قبل اللاهوتيين المعاصرين –ممثلين هنا في ماكفاغ– لتطوير العقيدة المسيحية لتصبح أكثر فعالية في الكون، إلاّ أنّنا نجد أن أحد مراجعي كتابها يتهمها بتهمة قد تنزع عنها صفة اللاهوتية المسيحية –على الأقل في ما يتعلق بمسألة الإله–، وهي أنها في نهاية المطاف لاأدرية صرفة في مسألة كيف هو الإله حقيقة.

2– العدميون: (القائلون بموت الإله) (**Denial of the concept of God- the death of God-**): ارتبط الإلحاد في الثقافة الغربية المابعد حداثية بالعلم والفلسفة، فمن التيارات التي تزعم ارتكازها على العلم الطبيعية أو الأنسنة العلمانية كريتشارد دوكينز مثلا، ومن أمثلة ذلك الإلحاد المعتمد على الفلسفة الماوية إحدى فروع الماركسية (**Maoisism**)[1].

ثانيا: الله في الرؤية الكونية التوحيدية:

1–أدلة وجود الله في الرؤية الكونية التوحيدية:

أ–الدليل الفطري: تنطوي النفس الإنسانية على توق فطري إلى كان عظيم تنسب إليه صفات الكمال، وتنشد عنده الحماية والأمن والطمأنينة، وهذا شعور يجده كلّ إنسان في نفسه في لحظات الضعف والفزع، وعند الهلاك، مهما شط به الغرور في أوقات السعة، وزمن الهدوء.

ب–الدليل التاريخي: إنّ تاريخ الإنسان ينبئنا أنّ البشرية منذ خلقها وفي كل منقلباتها: توحشا وتحضرا، وتنقلا واستقرارا، ظلت تتدين بتعبد إله أعظم يحقق الخير والسعادة، ويدفع السوء والشقاوة، وكانت تهتدي إلى الله أحيانا وتضل عنه أحيانا أخرى، لكنها في النهاية كانت تؤمن بوجود إله.

ج–الدليل الكوني: إذا ما انتقلنا من النزوع النفسي للإله الذي لازم الإنسان منذ ظهوره على وجه البسيطة إلى الكون في آياته وآفاقه ألفينا ذلك الشعور بالوجود الإلهي يتعزز بالتأمل في الآفاق إذ «الكون من أصغر مخلوقاته إلى أعظمها ركّب على هيئة من التناسق والنظام العجيبين بحث قدّر لكل منها تركيب في بنيتها، نسبة في وضعها في المجموعة الكونية لا يتغيران عبر الدهر، ولو حصل فيهما تغير طفيف لأدى إلى اضطراب يأتي بالفناء على ظاهرة الحياة بل على ظاهرة الوجود الكوني ذاته، (...) إنّ هذا النظام العجيب والتناسق الباهر اللذين بني عليهما الكون فيهما الدلالة العقلية القاطعة على أنّ هذا البناء ناتج على حكمة وقدرة وعلم يتصف بها خالق أعظم، خلق كل شيء بقدر، ذلك هو الله تعالى الذي أرشد إلى طريق

[1]–الماويون (**Maoists**): نسبة لمؤسس الحركة الصيني ماو تسي تونغ، وهي الصيغة الصينية للماركسية.

معرفته انطلاقا من الأنفس والآفاق في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت: ٥٣)»

2-صفات الله في الرؤية الكونية التوحيدية:

أ-صفات الكمال الإله: يتحقق الكمال الإلهي في الرؤية الكونية التوحيدية في مخالفة الله للحوادث التي يجري عليها النقص، «ولذلك فالله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ لا في ذاته ولا في صفاه: ليست ذاته بشبيهة بالذوات المادية، ولا هي خاضعة لما تخضع له الجسمية والتحيز، بل هي منزهة عن كل ذلك، ولكن العقل لا يتسطيع إدراك كنه هذه الذات العلية لأنّ وسيلة معرفته المقايسة بالأشباه والنظائر والأمثال.»

ب-صفة الوحدانية: إنّ «جماع ما يتصف به الله تعالى من صفات الكمال من إرادة وقدرة وعلم وسمع وبصر وكلام وغيرها، صفة تشملها جميعا هي الوحدانية: فالوحدانية تعني التفرد الإلهي في الذات من حيث انتفاء التعدد والمماثلة، كما تعني التفرد في صفات الكمال جميعا، ولذلك فإنّ لهذه الصفة أبعادا عديدة تشمل كلّ ما يتعلق بالألوهية.»

ج-أبعاد وحدانية الله تعالى: إنّ الوحدانية الإلهية في العقيدة الإسلامية ومن ثمة في الرؤية الكونية التوحيدية تنطوي على جملة من الأبعاد تتعلق بالتفرد الإلهي بالإنشاء والخلق، والتدبير، والحكم، والعبادة:

ج-1-أبعاد وحدانية الله في الإنشاء والخلق: من أبعاد وحدانية الله تعالى في الإنشاء والخلق أنّ الكون «ككل يعود في وجوده إلى الله وحده بعد أن كان في طي العدم، وما من موجود يوجد على مرّ الدهر إلا والله تعالى هو المبدئ له، وليس ما يبدو من تتابع سببي في سلسلة الخلق إلاّ ناموسا إلهيا ترجع فيه تلك السلسلة إلى الخالق الحقيقي، وهو الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (الرعد: ١٦) إنّ تناسق الكون الذي تنخرط فيه عناصره من أعلاها إلى أدناها تركيبا وتناسبا وضعيا لأكبر شاهد على هذه الوحدانية في الخلق، إذ وحدة الأسلوب في كتاب الكون تدلّ على وحدة المنشئ، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك: ٣)، وقوله: ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الروم: ٨)»

ج-2-أبعاد وحدانية الله في التدبير: والكون «بعد خلقه يخضع لله وحده في سيرورته بكل ما يحدث فيها من أحداث: استحالة من حال إلى حال بالزيادة والنقصان وتغاير الأوضاع. وليست النواميس الثابتة التي تحكم تلك السيرورة وما

يقع فيها من ضروب الاستحالة إلاّ شاهدا على ثبوتها وانسجامها على هذا البعد في الوحدانية ألا وهو الوحدانية في تدبير الكون وتسييره، قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ ﴾ (مريم: ٩٣)، وقال: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (البقرة: ١١٦)؛ وهذه الوحدانية في تدبير الكون تنسحب على الإنسان أيضا، مع انفراده بدائر منها خاصة به، وهي دائرة التدبير في نطاق التكليف.»

ج–3–أبعاد وحدانية الله في الحكم: إنّ تفرد الله تعالى بخلق الإنسان يقتضي تفرده عز وجل بكمال العلم بما خلق في طبيعته وقدراته ونوازعه وحاجاته، «ولذلك فإنّه المتفرد بأن يضع له منهاج الحياة على الوجه الذي يكون فيه خيره وسعادته وترقيه في شتى مناحي حياته الفردية والاجتماعية. وبذلك يكون من الأبعاد الأساسية للوحدانية وحدانية الحكم في حق الإنسان، على معنى أن يكون الميزان الأوحد فيما يأتي الإنسان ويذر فكرا وسلوكا هو ميزان البيان الإلهي، ائتمارا بما أمر الله وانتهاء عما نهى عنه، وكلّ ولاية على حياة الإنسان لا تكون قائمة على هذا المعنى فإنّما هي ولاية تناقض حقيقة الوحدانية الإلهية»؛ومن هنا كان القرآن الكريم بمثابة دليل التوجيه للإنسان الذي يوجه له حياته وسلوكاته لما فيه خيره في الدارين.

ج–4–أبعاد وحدانية الله في العبودية: «هذه الوحدانية في الحكم تقتضي الوحدانية في المعبود، فلما كان الله تعالى هو وحده الذي يشرف على ما يجري به الكون، ويضع ما تجري عليه حياة الإنسان، فإنّ الكون والإنسان جميعا يسلمان القياد ويتجهان بالخضوع والطاعة له وحده، قسرا بالنسبة للكون، واختيارا بالنسبة للإنسان» بناء عن اختياره لما سئل في عالم الذر: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ ﴾(الأحزاب: ٧٢).

المحور الثاني: الإنسان:

أولا: الإنسان في الرؤية الكونية الغربية: إنّ تناول الإنسان في الرؤية الكونية الغربية يحيلنا على الأقل على ثلاث مراحل أساسية، هي: صورة الإنسان في مرحلة العصور الوسطى، وصورته في عصر الحداثة، وأخيرا صورته في عصر ما بعد الحداثة؛ وإن كنا سنتجاوز مرحلة العصور الوسطى في حين سنركز على صورة الإنسان في عصري الحداثة وما بعد الحداثة لقربهما من العصر الذي نعيشه ولتأثيرهما في الواقع العالمي الراهن، وخصوصا في تكوين الرؤية الكونية الغربية الراهنة:

1–صورة الإنسان في عصر الحداثة: لا يمكننا الحديث عن الإنسان في عصر الحداثة دون الحديث عن النزعة الإنسانية والأنسنة، وهنا يطرح التساؤل هل النزعة الإنسانية هي الأنسنة؟ وإن كان لا فما الفرق بينهما؟

أ–تعريف النزعة الإنسانية: تمثل النزعة الإنسانية، إلى جانب العقلانية والعلمانية والتاريخية، مفهوما مركزيا في فلسفة الحداثة، وقد ارتبط ظهورها بعصر الإصلاح الديني وعصر النهضة في القرنين 15 و16م؛ ويمكن التمييز بين الإنساني أو

الإنسي بوصفه صفة، والنزعة الإنسانية بوصفها اسما؛ فصفة "الإنسي" اشتقت في اللغات الأوروبية في القرن 16م، وتحديدا عام 1539م. أمّا مصطلح "النزعة الإنسانية" –على هيئة الاسم، أو لمصدر– فلم يُشتق إلا في القرن 19م، علما أنّ مدلوله استُخدم منذ أمد طويل؛ فقد يوجد الشيء قبل أن يوجد اسمه. وكانت كلمة "الإنسي" أو "الإنساني" تُطلق على البحّاثة المتبحّرين في العلم، وبخاصة في علوم الأقدمين (اليونان، والرومان)، وقد ظهروا أولا في إيطاليا، ثمّ أخذوا يظهرون في بقية أنحاء العالم.

فالموقف الإنساني في معناه الأصيل يدل على "دراسة نصوص العصور القديمة اليونانية واللاتينية"، وبهذا يُمكن تعريف النزعة الإنسانية في عصر النهضة بأنّها: «الثقافة التي ميّزت إيطاليا في القرنين الرابع والخامس عشر، والتي نقلت إنجازاتها الفريدة بعد ذلك إلى كافة سرايا أوروبا، وهي تتمثّل في دراسة الأدب الإغريقي واللاتيني بوصفهما نمطا مثاليا من التربية والحضارة. إنّ الموقف الفكري المركزي للنزعة الإنسانية هو الرجوع إلى أصالة نصوص القدامى.»

والرجوع هنا يحمل دلالة القفز على العصر الوسيط أو العصر المدرسي؛ ما أحدث تداخلا بين النزعة الإنسانية وعصر الإصلاح الديني مع مارتن لوثر (1483–1546م) الذي رفض فكرة التوسط بين الله والإنسان، وعارض احتكار تفسير الكتاب المقدس، فضلا عن تداخل النزعة الإنسانية مع مفهوم النهضة، الذي يتضمن معنى الميلاد الجديد، بالقفز على العصور الوسطى، والعودة إلى البدايات الأولى اليونانية والإغريقية.

وهكذا ظهرت النزعة الإنسانية في عصر الإصلاح الديني وعصر النهضة، وهي النزعة التي جعلت الإنسان في بؤرة اهتمامها من دون الله، ومن أعلامها الأوائل: ديديه إيراسم () (1469–1536م) الذي سوّى بين الفلسفة واللاهوت بوصفهما وسيلتين للمعرفة والبحث، واكد حرية الإنسان، وأعاد بناء العقيدة المسيحية على أساس إنساني خالص، و ج.ب. دولامير إندول () () الذي كان كتابه "خطاب حول كرامة االإنسان" بداية للنظر إلى الإنسان بوصفه مركزا لكون، ولورونزو قالا () (1407–1457م) الذي دافع عن حرية الاختيار بوصفه حقا طبيعيا للإنسان.

وقد تركزت جهود هذه الجماعة من أعلام النزعة الإنسانية المبكرة على الاعتناء بالإنسان، وجعله غاية في ذاته، ومصدرا للمعرفة، وتأكيد أنّ خلاصه يكون بالقوى البشرية وحدها. وبصيغة أخرى، فإنّ النزعة الإنسانية هي فلسفة ورؤية قيمية تتلخص في المجهود العقلي والنظري الذي يسعى إلى تأكيد الإنسان بوصفه قيمة عليا، تصدر عنه الاجتهادات لفهم الإنسان والمجتمع البشري كله، وترجع إليه.

ب–تعريف الأنسنة: يرى هاشم صالح في معرض تمييزه بين الأنسنة والنزعة الإنسانية أنّ الأنسنة هي: «تركيز النظر في الاجتهادات البشرية لتعقل الوضع البشري، وفتح آفاق جديدة لمعنى المساعي البشرية لإنتاج التاريخ، مع الوعي أنّ التاريخ صراع مستمر بين قوى الشر والعنف وقوى السلم والخير والجمال والمعرفة المنقذة من الظلام.» فالموقف الإنساني يتضمن محاولات الإنسان فهم عالمه وذاته، ورفض كل ما يعدّه منافيا للحقيقة البشرية؛ ذلك أنّ الإنسان هو المنطلق والمنتهى في كل تفسير وتقييم للوجود. وبعبارة أخرى، فإنّ الأنسنة تعني الاعتقاد بأنّ الإنسان هو ذاتٌ خالقة للمعنى، ومبدعة للدلالات.

ومن هنا، فإنّ مفهوم الأنسنة قد استقر منذ عصر ديكارت على أنّها "مركزية إنسانية متروية، تنطلق من معرفة الإنسان، وموضوعاتها تقويم الإنسان وتقييمه، واستبعاد كل ما من شأنه تغريبه عن ذاته، سواء بإخضاعه لحقائق ولقوى خارقة للطبيعة البشرية، أم بتشويهه من خلال استعماله استعمالا دونيا، دون الطبيعة البشرية."

وتأسيسا على ذلك، فإنّ الأنسنة هي قطيعة جذرية مع الرؤية اللاهوتية التي صادرت حرية الإنسان وإرادته باسم الدين وفصول الصراع التي كانت قائمة بين الأكليروس من جهة، والعقل الإنساني المتطلع إلى الحرية والمعرفة من جهة أخرى. فالأنسنة هي ردٌ على التقديس الذي كان يغلف كل مجالات الحياة في أوروبا العصور الوسطى، وعلامة مناهضة لكل ما هو إلهي مفارق، وهي المفارقة التي انتهت مع صرخة نيتشه على تخوم القرن العشرين بموت الإله، أو بخيبة الأمل في العالَم مع ماكس فيبر ومارسيل غوشيه.

ولكن هذا لا يعني أن النزعة الإنسانية في الفكر الغربي –بجميع فروعها– هي خروج على الدين؛ فإلى جانب النزعة الإنسانية اللادينية، يوجد تيار إنسي فلسفي مؤمن، مثّله بعض الفلاسفة الكبار، من أمثال: الفيلسوف الألماني كارل ياسبيرز، والفرنسيين غابريل مارسيل، وإمانويل مونييه، وبول ريكور، وهي الإنسية التي تؤكد ضرورة الانتظام في التعاليم الإلهية المنزلة، والتسليم الواثق بالله.

2–صورة الإنسان في عصر ما بعد الحداثة: إذا كانت الحداثة نادت بموت الإله وألهت الإنسان، فإنّ فلسفة ما بعد الحداثة أعلنت بدورها موت الإنسان، وعملت على التحرر من وهم الإنسان "الإنساني"؛ أي الإنسان الواعي الفاعل المبدع؛ فالنزعة الإنسانية هي نوع من الميتافيزيقا بحسب مارتن هيدغر في كتابه "رسالة في النزعة الإنسانية"؛ وهذا يعني أنّ

النزعة الإنسانية صادرة عن ميتافيزيقا الذاتية كالإعلاء من قيمة الإنسان واعتباره مركزا مرجعيا، وعموما كتقويم ما دام أنّ كل تقويم هو نوع من الذاتية.

وبوجه عام، فإنّ التصور العقلاني للإنسان –بوصفه ذاتا مركزية مريدة– سرعان ما يتعرّض للنقض والمراجعة؛ إذ تأكّد بالتحليل النفسي أنّ الإنسان ليس واعيا وعاقلا، وإنّما هو ذات مشروخة غير عارفة بذاتها، وخاضعة لحتمية البنيات المختلفة الاقتصادية والاجتماعية واللسانية والرمزية التي تحدد معا ذاتا يداهمها اللاعقل والوهم والمتخيل من كل جانب. لقد أدّت الثورات المعرفية الكبرى التي حصلت منذ منتصف القرن 20م في الفكر الغربي (الثورة اللغوية، والإبستمولوجية، والبنيوية، والتاريخية، والبيولوجية، والفيزيائية ..إلخ) إلى فصل المعنى عن الوعي، والمعرفة عن اليقين، والمعنى عن التمثل، مبينة أنّ المعاني لا تصدر عن ذات سيكولوجية أو ترنسدنتالية، وإنما تتولد في اللغة، ومنظمات القرابة، ومختلف المنظومات الرمزية، وأنّ الذات ليست فاعلا بقدر ما هي حصيلة مفاعيل.

ومن المفارقات العجيبة أن نجد في مقابل الصرخة بموت الإنسان أصوات تبشّر بما يعرف بالسوبرمان، أو الإنسان الكامل، معلنة بداية عصر جديد هو عصر ما بعد الإنسان، الذي أبرز أماراته العمل على تجاوز كل ما يُنظر إليه بوصفه نقصا في الإنسان وأنتاج نماذج من الوجود الإنساني تتميز بالفعالية، ما يجعل هذا الوجود صناعة إنسانية، عن طريق السيطرة على الحياة العضوية، تمهيدا للكمال الإنساني المعلن عن قدوم إنسانية جديدة صانعة لمصيرها من خلال علوم عدة نتجت عن فك الشيفرة الوراثية ووضع خريطة الجينوم البشري.

إنّ التقنية الحيوية اليوم استطاعت أن تفكّ الشفرة الوراثية للإنسان، وهي تعده بقدرتها على التدخل في هذه الشفرة تعديلا وتحسينا، بل وتعلن على قدرتها على التنبؤ بمستقبله من خلالها صحة وسلوكا وشخصية، مما جعل إنسان اليوم يشعر بأنّه مجرّد رموز وراثية يمكن من خلالها معرفة تركيبه، ومن ثمّ إمكانية السيطرة عليه، شأنه في ذلك شأن كلّ عناصر الطبيعة التي تَمَكَّن الإنسان من قبل من تسخيرّها، وإذا استطاع الإنسان من قبل التدخل في الطبيعة بأن جعلها في خدمته بتغلبه على حرّها وقرّها، وتأنيس متوحشها، واختراق جوها وبحرها، فإنّه اليوم يتوجه إلى الطبيعة البشرية ساعيا لإعادة تشكيلها، وفي هذا الصدد يشير فكتور فركس في كتابه "الإنسان التقني" في نظرة مستقبلية للنتائج المتوقعة للتقنية البيولوجية على الإنسان قائلا: «...هناك نبوءتان جديرتان بالاهتمام والتقدير؛ أولهما: التحكم الوراثي الكامل بالإنسان، والثانية نهاية الإنسان كإنسان، وخلق فصيلة جديدة من قِبَلِه هو بالذات، فإن صدقت التكهنات واستطاع الإنسان أن يخلق فصائل جديدة للنبات والحيوان، فسيكون قادرا على خلق فصائل جديدة من العضوية الإنسانية المتوارثة.»

ممّا يعني أنّ إنسان المستقبل الذي تسعى إليه التقنيات البيولوجية مغاير تماما للإنسان الذي نعرفه؛ وذلك ليس بالغريب لأنّ «الهدف الأعلى للجينوم البشري تحديد الهوية الوراثية أو الخاصية الجينية للإنسان، وهذا التحديد قد يُستغَلّ

لتغيير هذه الهوية والخاصيات بهدف "التحسين والتطوير والتجميل"، أو الدمج والخلط مع كائنات وخصائص أخرى، أو غير ذلك ممّا قد تكشفه الأزمنة القادمة.»

غير أنّ هذه التقنيات والتجارب المطبقة فيها، وهي تسعى للإيجاد الإنسان الكامل قامت بتشييء الإنسان ونزع كرامته من خلال مساواته ببقية الكائنات الأخرى وإخضاعه للتجريب، بل وللتثمين والتسعير، إذ إنّ تحديد سعر معيّن للإنسان ليقبل توفير جسده كمحضن للتجارب يسويه بأي سلعة من السلع –مهما غلى ثمنها–، ومن ثمّة يصبح المال المقدم كمقابل لقبول الخضوع لمثل هذه التجارب بمثابة عامل ل«تشييئنا للشخص وتشخيصنا للشيء»، تشييئنا للشخص بتحويله إلى شيء قابل للتثمين، وتشخيصنا للشيء بجعلنا المال قابلا أن يكون مساويا لقيمة الشخص.

وإذا كان القانون هو الذي يفترض به أن يكون الحامي الأكبر لحقوق الإنسان في عصر الحداثة، فإنّ قانون عصر ما بعد الحداثة يعد الفرد حرا في الإقدام على ذلك «باعتباره شبه مالك لجسده ...لغايات البحث أو لغايات تجارية يُخضِع جسده لقانون التفاوض وتقييم العائدات الجسدية وكذلك يصبح حرا في تحديد ما ستؤول إليه.» وبهذا يفقد إنسان عصر ما بعد الحداثة ذاته في خضم سعيه لتطويره وتأليهها.

ثانيا: الإنسان في الرؤية الكونية التوحيدية: تنطلق الرؤية الكونية الإسلامية من عقيدة تنبني على ثنائية الوجود الطرف الأول فيه «الله جل جلاله، والثاني ما سواه من عناصر الكون جميعا وهو المعبر عنه "بالعالم" في اصطلاح الفكر الإسلامي. إنّ هذه الثنائية أثبتتها الآية الأولى التي نزلت من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ حيث انحاز الرب الخالق إلى جهة، وانحازت كل المخلوقات الكونية إلى جهة أخرى»؛ إلى الوجود الثاني ينتمي الإنسان (الوجود المخلوق أو الوجود العالمي)، «إلاّ أنّه كائن متميز عن سائر الكائنات الأخرى وذلك من حيث خلقه وتكوينه، أو من حيث منزلته في الكون، أو من حيث مهمته الوجودية»؛ وإذا كانت مهمته الوجودية هي ما تشكل معنى الحياة في الرؤية الكونية التوحيدية كما سترى في المحاضرة المقبلة، فإننا سنركز في هذه المحاضرة على خلقه وتكوينه، ومكانة العقل الإنساني ودوره في الرؤية الكونية التوحيدية.

ندرك من خلال الخبر القرآني حول خلق الإنسان الأول (آدم عليه السلام) أنّ «الإنسان خُلق متكامل الصورة على سبيل الطفرة الفجائية لا على سبيل الانقلاب التطوري الذي انحدر في من سلالات حيوانية دنيا حتى وصل إلى صورته الراهنة، وهو ما تفيده آيات قرآنية عدة، مثل: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ﴾(التين: ٤)، ومثل مجموع الآيات التي وصفت مشهد الإعلام الإلهي بخلق آدم وردود أفعال الملائكة والجن على هذا المخلوق الجديد، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ

﴿ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، وقال: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (ص: ٧١ – ٧٤).

وقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران: ٥٩). ففي هذه الآيات سُمي الإنسان في معرض الإخبار عن خلقه باسمه الوظيفي (الخليفة) وهو ما يقتضي الاكتمال. وفيها التعبير بالتسوية والنفخ في مقام التلاحق الزمني الذي يضمّه نفس المشهد ابتداء بإخبار الملائكة بالخلق، وانتهاء بسجودهم لآدم وعصيان الإبليس. وفيها مقارنة خلق آدم بخلق عيسى الذي يحمل عنصر الفجائية، ويعلو على الانقلاب السببي في الأطوار المعهودة، فكذلك الأمر بالنسبة لخلق آدم كما يفيده التعبير ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بما يحمله من معنى الاكتمال والفجائية في الخلق. وكل هذه الشواهد تدلّ على أنّ الإنسان في العقيدة الإسلامية خلق مكتمل الصورة مؤّهلا للتكليف.»

هذا التكليف الذي يقتضي الإرادة الحرة الواعية المبنية على العقل هذه الملكة و«القوة المميزة في الإنسان التي تُعَرِّفه بالحق والخير وتهديه إليهما، وبالباطل والشر وتبعده عنهما، فهو قوة كاشفة وموجهة في نفس الآن قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (البقرة: ٧٣)، وقال: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ (الملك: ١٠). (...) إنّ العقل الذي نعنيه في مجال حديثنا هذا هو تلك القوة الإدراكية المعيارية في الإنسان التي على أساسها حمّل أمانة الخلافة، والتي على أساسها خوطب بالوحي ليتحمله فهما وتطبيقا. وهذا المفهوم يتجه في التحديد وجهة المقابلة بين وسيلة إلهية للكشف عن الحقيقة هي الوحي، ووسيلة إنسانية هي العقل الذي يتسع بهذا المفهوم ليصبح مستجمعا لكل قوى الإدراك والتمييز في الإنسان، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٦).»

ورغم أنّ الوحي أعلى من شأن العقل وأعطاه مكانة كبيرة وصلت حد إناطة المسؤولية به لكشف حقيقة ادعاء النبوة من عدمها فضلا عن أنّه المسؤول الأول عن تحقيق الإنسان لوظيفة الخلافة في الأرض عبادة، وعمارة؛ إلا أنه بين أنّ لهذا العقل حدودا ينتهي دوره وقدراته عندها، فالعقل محدود بالمادة والزمان والمكان، وباختصار فهو محدود بعالم الشهادة، وحتى ضمن هذا العالم فإنّ جوانب الضعف الإنسانية من عجلة وعجب وغيرها قد تحول أن يصل العقل إلى الحقيقة الكاملة، وما المراجعات الفكرية لمنجزات وإخفاقات العقل البشري بتراكماته المعرفية عبر الأجيال إلا دليل على هذا القصور، فمثلا اكتشاف الغرب اليوم للخطأ الذي ساد فيه «من وهم في بداية ازدهار الحضارة الغربية بأنّ العقل الإنساني يتصف بالقدرة على

إصابة الحق المطلق، فبدأ منذ حين يوضع في حجمه الحقيق الذي يكون به قادرا على إدراك الحق، وتقدير الخير، ولكنه الحق النسبي والخير النسبي أيضا»؛ بل أوحيانا وصل الحد (في فلسفات تشاؤمية) حد الكفر به، لذا ركز الوحي الإسلامي مع إعلائه لقيمة العقل على ضرورة تسديده بالوحي ليحصل الإنسان رؤية كونية سليمة مبنية على معرفة متكاملة بين الوحي والعقل يحقق منها معنى الحياة كما سيتجلى في المحاضرة الموالية.

المحور الثالث: الحياة (أو معنى الحياة).:

أولا: معنى الحياة في الرؤية الكونية الغربية:

لم يكن سؤال المعنى مطروحًا بهذا الإلحاح الشخصي للكائن البشري في الحقب التاريخية الماضية، لكون الإجابة على هذا السؤال تمثّل حينها جزءاً مركزيًا من وعيه للوجود ضمن تصوراته الدينية والاجتماعية والثقافية الذي نشأ في سياقها. وتبدو الإشكالات القديمة على سؤال المعنى تأخذ طابعًا نخبويًا فلسفيًا، أو تحمل نزوعًا متشائمًا عابرًا، أو تصاغ في سياق الاحتجاج على مشكلة الشرور، بيد أن سؤال المعنى –في ظل السيادة العامة لانعدام المعنى والتي تعدّ من محددات عصرنا – لم يكن هاجسًا شخصيًا كما هو الحال في الزمن المعاصر، وكون معظم الناس في الغرب –تحديدًا– لا يزالون يتلمّسون الأجوبة عن مسألة ما الذي يجعل الحياة الإنسانية جديرة بالعيش، أو ما يضفي المعنى على حياة الفرد، هذه الحالة حديثة جوهريًا، أي: أن هذا التساؤل والبحث الفردي بهذه الكيفية غير مسبوق تاريخيًا، وإنما برز ضمن سياق واسع مرتبط بشكل عميق بصعود وتجذّر الحداثة في المجتمعات الأوروبية والغربية عمومًا.

وتتفاقم هذه الحالة الحديثة كلما اقتربنا إلى اللحظة الحالية، فقد ترسخ تضعضع المعنى في الحياة الشخصية مع تزايد معدلات العلمنة والفردنة، ونلاحظ هذا التفاقم في التغيّر الحديث للنماذج السائدة في المعالجة النفسية، "فطالما أشار المحللون النفسيون إلى أن الحقبة الزمنية التي كان معظم زبائنهم يعانون من الهيستيريا أو الخوف المرضي أو التعلّق أو التركيز المرضي (الاضطرابات العصابية التقليدية) قد انقضت، ونشأ مكانها زمن تتركز فيه الشكاوى الرئيسية حول (فقدان الأنا)، أو الشعور بالفراغ، أو الركود، أو الافتقار إلى هدف، أو خسران الاحترام الذاتي". ومن هنا ظهرت الاتجاهات الوجودية داخل العلوم النفسية الحديثة، والتي تتضمن أطروحاتها معالجة مشكلة المعنى بوصفها مدخلًا للعلاج النفسي، ومن أشهر الأطروحات في ذلك "العلاج بالمعنى"، والتي نشرها فيكتور فرانكل في أوائل السبعينات الميلادية، وقدّم التحليل النفسي نفسه باعتباره بوابة جديدة للأمل في عالم ملحد.

وبرغم ضخامة سؤال المعنى وجوهريته بالنسبة للكائن الإنساني إلا أن منظومات الحداثة الجماعية لم تولِ هذا السؤال العناية الكافية، بل ظل سؤالًا عابرًا يعالجه الإنسان بمفرده في مراحل معينة من عمره، كالمراهقة وانفعالاتها الأولى، "أما بالنسبة للكبار، فإنه يظل محصورًا في الدائرة الفردية الخاصة، ولا يظهر إلا في مناسبات استثنائية، كالحداد أو المرض

العضال". والأسوء من ذلك أن سؤال معنى الحياة ينظر إليه أحيانًا باعتباره سؤالاً باطلًا، أو ليس ضروريًا، أو حتى مثيرًا للسخرية، فهو تساؤل موبوء تفوح منه رائحة الميتافيزيقيا المنفّرة للإنسان المعلمن.

إذا نظرنا نظرة إجمالية للتاريخ الفلسفي الأوروبي سنعثر على أربع أطروحات شمولية تتناول سؤال المعنى، وتؤسس لنظرة خاصة للحياة الطيبة، وتسعى لإشباع أشواق الكائن البشري وتوقه المستمر لفهم أسرار الوجود.

1–الأطروحة الكوسمولوجية :تعود جذور هذه الأطروحة إلى العصور اليونانية القديمة، وتقوم على فكرة أساسية هي أن العالم يتسم بالانتظام لا الفوضى، ويطلق اليونانيون على ذلك "الكوسموس" أو النظام الكوني. ولكل كائن –في هذا النظام الكوني الجميل والعادل– منزلة محددة تتناسب مع موضعه في سلم التراتب الشامل المنظم لمواقع الكائنات. وتتمثل الحياة الطيبة للبشر بمعرفة هذا البنيان المنظّم –الذي يصفونه بالإلهي– وتأمله، بقصد الارتباط به والقيام بالدور المناط بالكائن، مع ملازمة المنزلة المحددة له وتنمية الملكات التي اختص بها. وكلما ازداد إحساس الكائن بمشاركته في ألوهية التناغم الكوني السرمدي –الذي هو منبع كل حقيقة ومنتهاها– قلّ خوفه من الموت، لكونه أصبح جزءًا من هذا النظام السرمدي "الكوسموس.

2–الأطروحة اللاهوتية :وهي التي جاء بها المسيح، وتقوم على الإيمان بخالق، واليقين بالبعث والحساب، وترتكز على شخصنة الخلاص، أي نجاة الفرد في الحياة الآخرة ونيل الغفران والحياة السعيد الخالدة، وهي تربط الخلاص باتباع تعاليم المسيح، وتأكيد التعلق وإخلاص الحب للرب الباقي.

3–أطروحة الإنسنية :وتقوم –كما سبق بيانه– على مركزة الإنسان، وعقله وحريته، وترى أن قواه العقلية وإمكاناته الذاتية تؤهله ليكون صانع لمصيره الخاص، فأقامت هذه الإجابة الإنسان في مقام الكوسموس أو اللاهوت (الإله). وقد وُلدت هذه الإجابة بالتزامن مع انهيار علم الكون القديم، وتضعضع فكرة انتظام وكمال الكون التي سادت في العصور القديمة، وتراجع نفوذ السلطات الدينية. أسس ديكارت الكوجيتو الذي يؤسس لحقبة جديدة تروم "إعادة بناء رؤية موضوعية للعالم بوسائل الإنسان الخاصة، و"الرفض المطلق لكل الأحكام المسبقة ولكل المعتقدات الموروثة من التقاليد ومن الماضي " وترتبط الحياة الطيبة في التصور الإنسانوي بالاهتمام بدور المعارف والثقافة والتربية في تحقيق المدنية والتحقق بالإنسانية، وإدماج التصور التقدّمي لتبرير الأفعال والإبداعات الشخصية، وإكسابها المعنى؛ فالإسهام المتميز في مسيرة البشرية نحو مستقبل أفضل وأكثر حريةً وعدلًا "يعطي صاحبه بعدًا من أبعاد الخلود، والذي يبدو في العالم الإنسانوي واللائكي والملحد بديلًا عن الخلاص المسيحي، وإن لم يضاهيه في القيمة."

هذه الأطروحة ترفض –لا سيما في أشكالها المتطرفة– العقائد الدينية مطلقًا، ومع ذلك فهي تحاول جاهدة تعويض أتباعها عن هذا النقص الوجودي الفادح، وتسعى إلى ابتكار عقائد وأيديولوجيات "تمسّكت –وهي تجاهر بإلحاد جذري– بمُثُل عليا تمنح المعنى للوجود الإنساني، بل وتبرر الموت في سبيلها، فقدمت لمعالجة هذه الإشكالية أطروحتين أساسيتين:

الأولى: ما يمكن أن يسمى "أديان الخلاص الأرضي"، مثل العلموية، والوطنية القومية، والشيوعية؛ وهذه الأخيرة "كانت تتضمن –حتى في صيغها المادية المغرقة في الدنيوية– فكرة (ما وراء [=غيبيات]) للحياة الحاضرة، بل أكثر من ذلك، كانت تتصور هذا الماوراء بصيغة لاهوتية، فهو متعال على الأفراد، ومندرج في لحظة خلاصية، هي لحظة الثورة. وهذا ما يفسر سلطة الافتتان الغريبة التي مارستها الشيوعية على مدى قرن ونصف من الزمان، وبانهيار الشيوعية انهارت كل رؤية لاهوتية للسياسة."

وكذلك الوطنية، فقد رفع الوطن/الدولة حتى أضحى مقدسًا "متعاليًا"، واحتل الشعب المكان الذي كان مخصصًا للإله في الحب والولاء والتضحية والخضوع، وتبدّلت المواقع التقليدية بأخرى حداثية؛ فاستبدل الكهنة والقساوسة بالآباء المؤسسين، والدستور بدلًا عن النص الديني، وتحية العلم وأناشيد الولاء بدلًا عن الترانيم الكنسية، وأصبحت الشهادة في سبيل الوطن لا من أجل الله، وقررت أحكام المروق على الوطن بأقسى العقوبات وأضحت هي الخيانة العظمى بدلًا عن العقوبات التي كانت تواجه الهراطقة والمرتدين، واستبدلت الهوية الجامعة بالمواطنة بدلًا عن الأخوة في الدين والمحبة لأجل الرب...الخ.

الثانية: فكرة الكون الموسع عند كانط الذي يعطى المعنى للحياة الإنسانية، وهو الفكر الذي ينتشل الكائن من وضعه الخاص ليرتقي إلى فهم الآخرين.

وبرغم النفوذ الواسع والعميق للأطروحة الإنسانوية الحديثة في الغرب الحديث إلا أنها لم تستطع إبعاد أو محو المسيحية في الواقع الأوروبي، بل تعايشت معها بصعوبة، يحاول لوك فيري ()1 تفسير ذلك، ليس بإعادة السبب إلى مدى عمق الأبعاد الروحية للإنسان، ولا لتجذّر فطرته الدينية، وإنما يرى أن الأطروحة الإنسانوية بتبنيها لفلسفة التقدّم، وإن نجحت في أنسنة معنى الحياة عند اللاديني، إلا أنها أضرّت بـ"شخصنة" الخلاص، وقلّصت من الاعتبار الغائي لفرادة الإنسان ومشاعره وذاتيته الغير قابلة للاختزال، لصالح تصور كلي للحركة التاريخية الصاعدة.

وكذلك الأمر مع أديان الخلاص الدنيوي، "فحتى لو اندفع الإنسان لأجل قضية سامية اعتقادًا منه بأن المثل الأعلى يعلو فوق الحياة، يبقى –في النهاية– أن الفرد هو من يتألم دائمًا، وهو من يموت ككائن خاص، ولا أحد يقوم بذلك بدلًا

[1]–لوك فيري، فيلسوف فرنسي، ولد عام 1952م، تخرج من السوربون، ثم درس في هيدلبرج بألمانيا في أواسط السبعينيات، وتخرج أستاذًا في الفلسفة. برزت شهرته عام 1985م حين نشر مع آلان رونو كتاب "الفكر 68"، وذاع صيته في تدريس وتقديم الفلسفة بصورة شعبية. أصدر أكثر من 20 كتابًا، ترجم منها: "الإنسان المؤله أو معنى الحياة" (صدر بالفرنسية 1996م)، و"تعلم الحياة" (صدر بالفرنسية 2006م) وبيع منه أكثر من 600 ألف نسخة، و"أجمل قصة في تاريخ الفلسفة" (صدر بالفرنسية 2014م)، و"مفارقات السعادة" (صدر بالفرنسية 2016م)، ومن كتبه البارزة التي لم تترجم إلى العربية: "النظام الإيكولوجي الجديد" (صدر بالفرنسية 1992م)، وترجم إلى أكثر من 15 لغة، و"ثورة الحب: من أجل روحانية علمانية" (صدر بالفرنسية 2010م)

عنه. أمام هذا الموت الشخصي، قد يتبين يومًا ما أن الشيوعية والمذهب العلموي والقومية ليست سوى مجردات فارغة لا أمل يرتجى منها". وتجد في كل ذلك صدىً مباشر للنزعة الفردية المسيطرة على إنسان ما بعد الحرب العالمية الثانية.

4–الأطروحة التفكيكية التقويضية :تقوم هذه الأطروحة على مهاجمة أقوى معتقدين حداثيين (الإنسانوية والعقلانية): كون الإنسان مركز العالم ومبدأ كل القيم الأخلاقية والسياسية، واعتبار العقل القوة المحررة، وأننا بفضله سنكون أكثر حرية وسعادة. ينطلق هذا النقد من اعتبار معتقدات الحداثة الكبرى ظلت "أسيرة للتراكيب الأساسية للدين الذي أكملته دون دراية منها، في الوقت الذي كانت تعتقد أنها تجاوزت تلك التراكيب". يستند نيتشه –وهو الممثل الأبرز لهذه الأطروحة– لمبدأ مركزي في تقويضه لكافة الأوهام الأخلاقية والتصورات السياسة الحديثة، وهو "أن كل المثل سواء كانت دينية بشكل واضح أم لا، أو كانت يمينية أو يسارية، روحانية أو مادية، تملك نفس الهدف ونفس البنية، فكلها تنبع من تركيبة دينية؛ لأن المقصود دائمًا هو اختراع (ما وراء) أفضل من هذه الحياة، وتخيّل قيم أسمى من الحياة وتقع خارجها، أو بلغة فلسفية قيمًا فوقية، كما أن العلوم أيضًا مثلها مثل الدين والميتافيزيقيا تدّعي "الوصول إلى حقائق مثالية، وإلى كيانات معقولة لا يمكن لمسها ماديًا ولا حتى رؤيتها". غني عن القول أن هذه الأطروحة لا تقدم إجابة لسؤال المعنى، ولا تنسق سردية معقولة للحياة الطيبة، بل هي أطروحة مشبعة بالنزعات العدمية والميول العبثية، مهما حاول بعض شرّاحها ومؤوليها استنباط رؤية "إنسانية" تؤسس لمعنى ما، يمكن للإنسان التعويل عليه.

تفشل محاولات بناء المعنى في حياة الإنسان المعاصر لإخفاقه المتكرر في بناء سردية مكتملة ومعقولة، وتتسم بالاتساق والامتداد الزمني، على الصعيد التاريخي والشخصي، وذلك نتيجة المبالغة في التمركز حول الإنسان والانقطاع الروحي ورفض التقاليد والعقائد، فيتقلص تفكير الإنسان في نفسه لينحصر في صيغة مكانية لا زمانية، وينغرس وجوده الباطني في أبعاد الوجود المرئية، مما يؤدي إلى فقدان العلاقة الوجودية الأصيلة بالنفس، بل فقدان أيضًا العلاقة الأصيلة بالآخرين، "فالعزلة –كما يقول المفكر الإيطالي لويجي جوساني ت2005م– ليست أن أكون وحدي وإنما غياب المعنى، *"فالعزلة في الحياة الجماعية هي اتهام لحضورنا فيها دون إدراك المعنى، فنحن هناك من دون الاعتراف بما يجمعنا، ولذلك تصبح أقل سفاهة اعتراضًا يهدم كل بنيان الثقة."*

وهذا التقزّم للأبعاد الزمانية وفقدان السردية الممتدة يمكن ملاحظته في كثير من خطابات السعادة والروحانيات العلمانية وكتب علم النفس الشعبي والكتب الأكثر مبيعًا في تنمية الذات والتغلب على المشكلات، فيبرز فيها بكثرة الإرشادات التي تتمحور حول: الاستمتاع باللحظة الراهنة، وتعلم فن اللامبالاة، والحذر من الارتباط والتعلّق، وعدم اجترار الماضي، وتحاشي الأمل، وحب الذات والاكتفاء بها، والاستغراق في التأمل.

ما هي السردية؟ هي الخطاب المرتّب المتسلسل الواضح بين الأحداث بحيث تكون ذات مغزى، متضمنًا فهمًا محددًا للعالم، "ولكي نكوّن أقل معنى لحياتنا نحتاج إلى فهم حياتنا بشكل حكاية متسقة منطقيًا، فلكي يكون عندنا معنى بما

نحن نكون، علينا أن نعرف كيف صرنا، وما المكان الذي نحن ذاهبون إليه ."وهكذا يمكن بناء المعنى شخصيًا وتاريخيًا عبر "الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ ليبدو وكأنه قصة متماسكة".

ثانثا: معنى الحياة في الرؤية الكونية التوحيدية:

1-السردية الإسلامية: عند تفحّص تصورنا الإسلامي سنجد أن السردية المؤمنة التي يقدمها الوحي تتأسس على التحقق الجازم بأن المدار والأس والأساس، والغاية والمنتهى، هو الله سبحانه وتعالى (قُلْ *إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*(، فهو الأول والآخر، والدائم، والحي الذي لا يموت، والقيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يمكن أن تصح رؤية للعالم ولا معنى للوجود من دون أن يكون الإيمان بالوجود الإلهي، واليقين بكماله المطلق عز وجل، ورعايته التامة، ونفوذ أمره وإرادته؛ هي الركن الركين، فهي الركيزة الوجودية الأصيلة الكفيلة بتشييد البنية التحتية المؤسسة لمعرفة صحيحة وأخلاقيات فاضلة ونظام متماسك للمعنى.كما تتضمن هذه السردية مبدأ الإنسان، وسياقه التاريخي، والمغزى من وجوده، وعلاقته بالكون والآخرين، ومصيره.

2-ماهية الإنسان في الرؤية الكونية الإسلامية: مبدأ حال الإنسان أنه مخلوق لله تعالى على هيئة خاصة من التشريف والكرامة (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)، وحمّله الأمانة (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) وهي "التكاليف الشرعية، من التزام الطاعات وترك المعاصي"، وأوضح له الغاية من وجوده في هذا العالم بأجلى عبارة (وَمَا *خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ*(، وأخبره عن حتمية وروده إلى الدار الآخرة، وأنه يرد إليها وحيدًا (إِن كُلُّ مَن فِي *السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ* إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ *أَحْصَاهُمْ* وَعَدَّهُمْ عَدًّا *وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا* (ليحتاط لنفسه فلا يعوّل على حسب أو نسب، ولا يغترّ بالكثرة الضالّة، وسخّر له الموجودات (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ) ليستعين بها على مراد الله منه، ولا يخالف بها ولا فيها، بل يكون معها على حال تتناسب مع طبيعتها المؤمنة المسبّحة (وَإِن مِّن *شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ*(، وأورد له الحقائق التي تصوّب نظره إلى طبيعة وجوده العابر، فقال له أن الدنيا لا تعدل شيئًا في زمان الآخرة (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)، وأن الحياة الدائمة أولى بالعناية) *وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ*)، ووعد المؤمن بالخلود المطلق في النعيم الأبدي (والَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا* .(

وهكذا ترى أن هذه "السردية" قد تركّبت باتساق متعقل يُبين عن طبيعة الأزمنة الثلاث وموقع الإنسان داخلها ومصيره، على نحوٍ لا يمكن منافسته من أي "سردية" محايثة، لكونها تتضمن جوانب غيبية في المنشأ والمصير، وتفسّر الحالة الإنسانية في أخصّ معضلاتها الوجودية. ولا يمكن بناء سردية مبتورة لا تجاوز عمر الإنسان القصير، أو ترفض أو تتناسى أبعاده الروحية الخفية، أو تكابر في تقبّل موته المطلق من غير رجعة، وتتجاهل أشواقه الباطنة للخلود، وعطشه العميق

للحياة الأبدية؛ إن "معنى الحياة" في الشرع إنما يتحقق بتصحيح القصد، والإيمان بالرسالة، وضبط بوصلة على القلب على جهة العلو، طاعةً ومحبًا وإخلاصًا وتوحيدًا.